

مجلـــــــــــة

آداب الرافدين

علميّـــــة محكّمـــــة

فصليـــــّة

تصـــدر عن كليـــة الآداب

العـــدد: الثاني والسبعون

السنة: الثامنة والأَربعون

الموصـــــــــل

١٤٣٩هـــ / ٢٠١٨م

توجــه المراســلات باســم رئيــس هيئــة التحــرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@gmail.com



آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية

باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: الثاني والسبعون	السنة: الثامنة والأربعون

قواعد النشر في المجلة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

الفُروق التعبيرية في الحوار بين الرُسُل وأقوامِهِم في القرآن الكريم - سورة الأعراف أنموذجاً –

م.د. أحمد عامر سلطان الدليمي *

تأريخ التقديم: ٢٠٠٩/٨/٤ تأريخ القبول: ٢٠٠٩/٩/١٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

فإنه من الأهمية بمكان أن يدرك الباحث في موضوع الحوار في الفكر الإسلامي وأخص من ذلك الحوار في القرآن الكريم ، أقول من الأهمية بمكان أن يدرك ذلك الباحث مدى ما أعطاه القرآن الكريم من عظيم اهتمام لموضوع الحوار ، حتى أن آيات الحوار في القرآن قد بلغ عددها ألفاً وسبعمئة آية قرآنية موزعة على مساحة القرآن الكريم كله ، وهو بواقع ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم ، توزعت تلك الآيات على موضوعات الحوار بأنواعه .

فمن يتصور أن خالق السماوات والأرض يحاور الملائكة في شأن الخليفة الأول على وجه الأرض: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (البقرة:٣٠) ، ومن عظمته سبحانه أن سمح لرمز الشر المطلق أن يحاوره ليُقيم الله تعالى عليه الحجة أمام الكون كله ، وهذا ما صورته لنا سورة الأعراف وسور أخرى ، فيقول تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ✶ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ✶ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ✶ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ✶ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ✶ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ✶ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ✶ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل .

تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف:١١-١٨) .

كما نجد حوار الرسول عليه الصلاة والسلام مع الصحابة أو الصحابيات، ونجد حواره عليه الصلاة والسلام مع المعارضين والكافرين والمستهزئين وغيرهم، وأصنافاً أخرى من الحوار في القرآن الكريم ؛ كالذي دار بين أصحاب الجنة وأصحاب الأعراف وأصحاب النار على التناوب ، ثم ما دار من حوار بين البشر والحيوان .

ولقد تناول البحث صورة بارزة من صور الحوار في القرآن الكريم تمثلت في الحوار بين الرسل وأقوامهم ؛ فيما تضمنته سورة الأعراف من مقارنات في الحوار لقصص الرسل مع أقوامهم ، وتضمن منهج البحث تصنيف الحوار بين الرسل وأقوامهم إلى مستويات عديدة ؛ ثم إلى موضوعات متنوعة تم تحديد ذلك ضمن دراسة تحليلية مُدَعَّمةً بجدول توضيحيٍّ مُيسَّرٍ.

تمهيد :

تضمن البحث دراسة مقارنة لأساليب الحوار بين الرسل وأقوامهم في سورة الأعراف بين الأقوام الخمسة : (قوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، ومدين قوم شعيب) وقد ناقش البحث الآيات القرآنية الآتية من سورة الأعراف :

قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ * وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا

تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ * وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ *

الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ ✷ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}(الأعراف ٥٩- ٩٣) .

الحوار بين الرسل وأقوامهم في سورة الأعراف :

توزعت المقارنات في الحوار بين الرسل وأقوامهم في سورة الأعراف على جوانب عديدة هي: تحديد شخصيات الحوار ، وأولويات الحوار ، والأساليب المتنوعة في العرض ، والأساليب المتنوعة أيضاً في الرد ، وأساليب تصحيح المفهوم التي تبناها الرسل عليهم السلام وغير ذلك ، وفيما يأتي شرح تفصيلي لذلك :

أولاً : تحديد شخصيات الحوار :

بادرت الآيات الكريمة بتثبيت شخصيات الحوار في مطلع كل قصة ففي القصة الأولى وهي قصة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه ، يقول تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ) (الآية٥٩) فحددت الآية أن الحوار القادم سيدور بين نوح عليه السلام من جهة وقومه من جهة أخرى ، "وخاطب نوح قومه كلهم لأن الدعوة لا تكون إلا عامة لهم ، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة ، ليتحققوا أنه ناصح ومريد خيرهم ، ومشفق عليهم ، وأضاف القوم إلى ضميره للتحبيب والترقيق لاستحباب اهتدائهم"(١) . وفي القصة الثانية يقول تعالى: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً)(الآية:٦٥) فحددت الآية أن الحوار القادم سيدور بين نبي الله هود وقومه الذين أسماهم هنا بـ (عاد) ، وميزت الآية عن سابقتها عبارة (أخاهم) ، فلم يكن المحاور لهم رسولاً لا يعرفونه ، وإنما هو من أقرب المقربين عندهم ؛ فقد وصفته العبارة القرآنية بأنه أخوهم مما يُحَتِّمُ الإخلاص والصدق في النصح لقومه ، وفي نسبة أخوة الرسول إلى قومه إشارة إلى إقرارهم هم بتلك الأخوة وأن له في أنفسهم مكانة كبيرة فقد قدم التعبير القرآني المجرور على المفعول الأصلي ليتأتى الايجاز بالاضمار حيث أريد وصف هود بأنه من اخوة عاد ؛ من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد ، ومع تجنب عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة فقال: (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً) و(هوداً)

(١) تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، د. ت : ٨ / ١٨٨.

بدل أو بيان من أخاهم[1] ، هذه الخصيصة تُدعِّم موضوع الحوار وتقوي الحجة فهي عامل مساعد يلطف جوّ الحوار ، ويجعله أكثر إيجابية ، فإن من أهم مقومات الحوار؛ النديَّة والتكافؤ بين المتحاورين،إذ إن أي حديث عن حوار فعّال لابد من استحضار مفهومين أساسين هما: الندية والتكافؤ[2]. ولقد سلكت القصة الثالثة المسلك نفسه في قوله تعالى: (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً) (الآية:٧٣) ، بينما تميز أسلوب العرض لعنصري الحوار في قصة سيدنا لوط عليه السلام ؛ وذلك لِما تميزت به القضية التي دعا لوط عليه السلام إلى تغييرها ؛ وهي من الخصوصية بمكان ، فهي أولاً تميزت عن قصة قوم نوح أنها لم تذكر لفظ (الرسالة) ، وأنها تميزت عن قصتي عاد وثمود أنها لم تذكر عبارة (أخاهم) ؛ وإنما دخلت العبارة القرآنية في حوار مباشر دون مقدمة تمهيدية فقال تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) (الآية:٨٠) ، وإنما يأتي ذلك لاختلاف موضوع الحوار أولاً ، واختلاف عنصر الحوار الثاني (المخاطَبِ) ثانياً ، فضلاً عن اختلاف البيئة ، وفي قوله تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) عُطف (لوطاً) على (نوحاً) إذ التقدير (وأرسلنا لوطاً) ، فقد ابتدأت قصة لوط وقومه بذكر (لوطاً) كما ابتدأت قصة نوح لأنه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به ، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به[3]. ثم يعود أسلوب الحوار لتأتي قصة سيدنا شعيب عليه السلام المُرسل إلى قومه (مدين) ، فتسلك القصة المسلك الذي سلكته قصتَيا عاد وثمود تماماً بتمام وفق عنصر تحديد شخصيات الحوار إذ يقول تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً) (الآية:٨٥) ، و"تفسير صدر هذه الآية هو كتفسير نظيرها في قصة ثمود" [4].

---

(١) المصدر السابق : ٨ / ٢٠٠.

(٢) الحوار الحضاري في سياق العولمة جدلية الغالب والمغلوب ، عبد العزيز انميرات ، ضمن مجموعة مقالات بعنوان الحوار مع الآخر المنطلقات والضوابط ، سلسلة إصدارات مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م ،الكويت : ٦٧ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : ٨ / ٢٢٩.

(٤) م.ن. : ٨ / ٢٣٩.

ثانياً : موضوع الحوار (الرسالة التي جاء بها الرسل) :

أول موضوع أطلقته الرسل جميعاً في حوارها مع أقوامها بل كان هو غايَة الحوار ومحوره (وحدانية الله تعالى)، يقول صاحب الظلال: فهي الكلمة التي لا تتبدل وهي قاعدة هذه العقيدة ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط، وهي الكفيل بتحرُّرِ البشر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلِّها ، وعلى الوعد ، وعلى الوعيد(١) ، فقال كلُّ رسول لقومه: (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)(الآيات: ٥٩،٦٥،٧٣،٨٥) ، إلا ما افتتح به لوط عليه السلام حواره مع قومه إذ قال تعالى: (وَلُوطَاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)(الآية:٨٠)، فليس من المناسب أن يؤمن القوم بوحدانية الله ثمّ يأتون بعد ذلك بفاحشةٍ ما سبقهم بها من أحد من العالمين، فكان من أولويات الحوار أن ينتهي القوم عن أسوءِ فاحشة عرفتها البشرية، "وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة وعن قضية أخرى غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد ..... والاسراف الذي يدمغهم به لوط هو: الاسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب فهي مجرد شهوة شاذّة ..." (٢).

ثالثاً : الأساليب المتنوعة في العرض :

تحذير الرسول لقومه من الإعراض، وتخويفهم ، وتقديم الحجج :

بعد أن أدى كلّ رسول رسالته إلى قومه بشكلها الإجمالي (وهي بمثابة مستخلص القول) التي يمكن أن تتقدم القول لتأتي تفصيلاته بعد ذلك ، فجاءت بعد ذلك الأساليب المتنوعة في العرض من تحذير أو تخويف أو إنكارٍ أو سوى ذلك من أنواع الدعوة ،

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، ط٣٤ ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ ، القاهرة ، مصر : ٣/ ١٣٠٨ .

(٢) م.ن. :٣ / ١٣١٥ .

ومثال التحذير ما كان على لسان نوح عليه السلام من عذاب يوم عظيم فقال تعالى: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (الآية:٥٩) فاكتفى الرسول بتخويفهم من ذلك اليوم وهو "يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم" [١]. أما تحذير هود لقومه فكان مختصراً باستفهام انكاري في قوله تعالى: (أَفَلا تَتَّقُونَ) (الآية:٦٥) ، أي أفلا تتّقون وتتّعظوا بما أصاب قوم نوحٍ عليه السلام من قبلكم لمّا كذبوا رسولهم ، وفي مضمون هذا الاستفهام تحذير من عذاب عظيم. بينما يسلك الحوار مع ثمود قوم صالح عليه السلام مسلكاً آخر ومستوىً حوارياً جديداً في عرض البيِّنات ؛ وفي ذلك إشارة إلى تطور أولئك القوم عن سالفهم ؛ إذ صار من ضروريات الإقناع الإتيان بالحجج والبراهين على صدق الإدعاء فقال تعالى على لسان الرسول صالح عليه السلام: (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(الآية:٧٣) ، ثم يأتي التذكير بالأمم السابقة وما حلّ بها ، ثم التذكير بنعم الله تعالى عليهم ؛ قال تعالى: (وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(الآية:٧٤) ؛ وقد تميز هذا النص القصير بذكر ركائز مهمة في محاججة القوم ومحاولة إقناعهم ؛ فقد ذكّرهم بالخلافة التي منحهم الله تعالى فجعلهم خلفاء الأرض من بعد القوم الجبارين قوم عاد ؛ ثم ما منحهم من أسباب التمكين من التنوع الطبيعي للمكان الذي وصلت أيديهم إليه من السهول والجبال ؛ وذكر السهل والجبل طباق يصور عظيم شأن أولئك القوم الذين أوتوا من جميع أسباب الحياة من تنوع الطبيعة الجغرافية والمناخية والنباتية والبيئية وغيرها ؛ "ومحل الامتنان أن جعل منازلهم قسمين: قسم صالح للبناء فيه ، وقسم صالح لنحت البيوت ، قيل كانوا يسكنون في الصيف القصور ، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال" [٢]؛ إننا " نلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون من السهل القصور وينحتون من الجبال البيوت . فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم ... وصالح يذكرهم

(١) الأساس في التفسير ، سعيد حوى ، دار السلام ، ط٦ ، ٢٠٠٣م –١٤٢٤هـ ، القاهرة ، مصر : ١٩٣٢/٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٢٢١/٨.

استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية –في التاريخ– لحضارة عاد ، وإن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً . وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض ، محكمين فيها" (١) ؛ ثم يأتي بعد هذا التذكير بنعم الله عليهم فينهاهم عن الانطلاق في الأرض غروراً واستكباراً وفساداً . وتفريع الأمر بذكر آلاء الله ؛ تفريع الأعم على الأخص ، لأنه أمرهم بذكر نعمتين ، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها ، فكان ذلك بمنزلة التذييل(٢) .

أما سياق الحوار في قصة قوم لوط عليه السلام فقد تجرد عن تقديم الحجج والبراهين فضلاً عن التخويف بالتهديد والوعيد ، إذ كان الخطاب مختصراً على الرغم من كونه يحمل في طياته أعلى درجات التهديد فيقول تعالى: (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)(الآية:٨٠-٨١)؛ والإتْيَانُ كناية عن عمل الفاحشة(٣) ، إن لم ينته المخاطب عن تلك الفاحشة المبتكرة التي لم يأتِ بها أو بمثلها أحد من العالمين، وحتماً سيكون عذابه فريداً من نوعه لا يُعذبه الله أحداً من العالمين إذ الجزاء من جنس العمل. فأعرض القرآن عن تحديد طبيعة العذاب إذ هو عذاب لم يسبق أن عذبَّ الله تعالى به أمة من الأمم ، "فالاستفهام في (أتأتون) إنكاري توبيخي ، والاتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل ، أي أتعملون الفاحشة ، وكنّى بالإتيان عن العمل المخصوص وهي كناية مشهورة"(٤) ، وفي قوله (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) توبيخ مباشر واتهام صريح يتناسب والفاحشة التي كانوا يتعاطونها جهاراً نهاراً .

أما قصة سيدنا شعيب عليه السلام فيعود فيها التعبير القرآني إلى عرض مفردات الحوار في هذا الجانب على طريقة رسول الله صالح عليه السلام من تذكيره بالبيِّنة التي أصبحت من ضروريات الحوار والاقناع عند هذه الأقوام ، فقال تعالى: (قَدْ

---

(١) في ظلال القرآن : ١٣١٣/٣.
(٢) التحرير والتنوير : ٢٢١/٨.
(٣) التحرير والتنوير : ٢٣١/٨.
(٤) م.ن. : ٢٣٠/٨.

جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (الآية:٨٥) ، ثم يرقى الحوار فوق ما بلغته قصة صالح عليه السلام إلى مستوى حواري متميز عن سابقه ، وليعرض مجموعة من الأوامر والنواهي الضرورية لإصلاح حياة البشر ، والقيام بالمدنية ، والارتقاء بالمجتمعات الإنسانية ، ويتمثل هذا الارتقاء في مستوى الحوار بين الرسول وقومه في قوله تعالى: (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا) (الآية:٨٥) ، ثم يختم الكلام بتحبيب تلك النصائح إلى نفس المخاطب ، والاستجابة للأوامر ، والالتزام بها ، فيقول تعالى: (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الآية:٨٥) ، وفي الآية الكريمة ذكر للإيمان دون الكفر ، فنلتمس في ذلك التلطف والترغيب[١] ، وفي ذلك ارتقاء في مستوى الخطاب الدعوي ، فضلاً عن عدم ذكر العذاب العظيم أو الأليم . ويستمر شعيب عليه السلام في النهي عن بعض ما كان يمارسه ذلك المجتمع الجاهلي فيقول: (وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً) ويستصحب في دعوتهم إلى هذا كله بعض المؤثرات الموحية[٢] يذكرهم نعمة الله عليهم (وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ) ، ويخوفهم عاقبة الذين من قبلهم فيقول: (وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) ، وهو حينما ذكّرهم بالإيمان نَسَبَهُ إليهم فقال: (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وحينما ذكّرهم بالفساد نسبه إلى غيرهم فقال : (وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) ، وهذا أسلوب عظيم من أساليب الدعوة إلى الله تعالى ، ثم يسترسل الرسول في تنويع أساليب الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الإيمان والتحذير من الاستمرار على الكفر أوعدم الإيمان ، فيقول: (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) وهنا لم يقل (طائفة منكم آمنوا وطائفة كفروا) ، بل قال: (طائفة منكم آمنوا ... وطائفة لم يؤمنوا) على طريقة طباق السلب ؛ مستخدماً ألفاظ الإيمان بكل دقة ، مبتعداً عن ألفاظ الكفر بكل حذر ؛ راجياً من ذلك تحقُّقَ الإيمان ، نافياً عن أسماع المخاطبين كل ما يسيءُ إلى الفطرة البشرية السليمة ، ثم يطالبهم بعد ذلك بالصبر والتريث وعدم التعجل في اتخاذ الحكم أو اختيار المواجهة فيقول: (فَاصْبِرُواْ

---

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ، د. عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٩٩٧ – ١٤١٨هـ ، بيروت ، لبنان : ١/ ١٣٣.

(٢) في ظلال القرآن : ١٣١٧/٨.

حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) ، " لقد دعاهم إلى أعدل خطة ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وتركِ كُلٍّ وما اعتنق من دينٍ ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين" [١] .

ومما ذكرنا آنفاً فإنه يظهر واضحاً ذلك التباين في أساليب العرض لدى رسل الله وما ذاك إلا بفعل التباين في العنصر المستقبل لذلك العرض ؛ وهم الأقوام المخاطبون أنفسهم.

رابعاً : الأقوام المخاطبون وصفاتهم (الطرف الثاني في الحوار) :

العنصر الثاني المهم في اكتمال الصورة الفنية المتجسدة في الحوار بين الرسل وأقوامهم ، بعد أن عرض الرسل على أقوامهم موضوع الرسالات ، وفق أساليب متعددة ، متمثلة بعبادة الله وحده ، ثم بعض الأوامر والنواهي ، فانبرى للرد على الرُسل ثلّة من القوم سمّاهم الله تعالى (الملأ) من القوم وهم الأشراف والسادة[٢] ، أو الرؤساء[٣] ، فتكررت عبارة (قال الملأ) للدلالة على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ، "وقد فُصلت جملة (قال) على طريقة الفصل في الحوارات" [٤] . فما طبيعة وما صفات الملأ في كلّ قوم من هذه الأقوام؟ وما سمات الرد الصادر عن كلّ ملأ منهم ؟ .

لقد تنوعت صفات الأقوام التي أرسل الله تعالى إليهم الرسل لحكمة يعلمها الله تعالى ، فبالنسبة لقوم نوح فإنه لم يتضمن التعبير القرآني وصفاً معيناً للملأ من الذين انبروا للحوار مع رسولهم ، فقال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ) (الآية:٦٠) .. بينما يتطور ذلك العنصر في قصة سيدنا هود عليه السلام فيقول تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

(١) في ظلال القرآن : ١٣١٨/٨.
(٢) الأساس في التفسير : ٤/ ١٩٣٢.
(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، ٢٠٠٤ – ١٤٢٥هـ ، بيروت ، لبنان : ١٧١ .
(٤) تفسير التحرير والتنوير : ٨ / ١٩٠.

قَوْمِهِ) (الآية:٦٦) ، فقد أظفى لتعبير القرآني على الملأ الذين انبروا للحوار صفة الكفر ، فهم السادة والرؤساء منهم ، وذلك يدلل أيضاً على أن بعضاً من الملأ قد أسلم[١] ، أو قد يكون المعنى أن الملأ أو الرؤساء هم الذين كفروا وهم الذين كانوا سبباً في الصدّ عن الاستجابة لنبي الله ، إذ كان للقوم سابقة من قوم آخرين من الذين كفروا وهم قوم نوح عليه السلام فقد عرفوا مصير الكافرين من قبلهم لمّا كذّبوا رسولهم ، ومع ذلك فقد أصرَّ كبراؤهم من الذين كفروا على كفرهم ، وقيل: كان من أشراف قوم هود من آمن به ولم يكن من أشراف قوم نوح مؤمن فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود لأن القائلين هم الذين كفروا منهم[٢]، فأريدت الفرقة في الوصف[٣] ، غير أن هذا القول يتناقض مع ما ورد في سورة هود ؛ قال تعالى : (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)(هود:٢٧) فالآية تخبر بأن الملأ من قوم نوح كان منهم من آمن ولم يكونوا جميعاً من الكافرين كقوم هود تماماً بتمام ، وبذلك يكون من الأرجح أنه وصف وارد للذم لا غير[٤] ، ويبدو من ذلك أيضاً أن الملأ الذين كفروا كانوا الأغلبية من الملأ فكانت لهم المبادرة في القول دون الذين آمنوا منهم . ويتطور أسلوب الوصف لهذا المحور الرئيس في الحوار عن سابقيه في قصة سيدنا صالح عليه السلام ؛ إذ وصف الله تعالى الملأ وصفاً جديداً لم يكن في أسلافهم فقال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) (الآية:٧٥) إذ أصاب بعض الملأ منهم استكباراً ؛ وهو الإصرارٌ على الكفر ، على الرغم مما وصلهم من أخبار الكافرين من قوم نوح وقوم هود ، بيد أنهم وزيادة في التعنت أصرّوا على تكذيب رسولهم ، فأضافوا إلى كفرهم اصراراً واستكباراً ، فظهر لدينا مستوى جديداً من التكذيب والاستعلاء لم يوصف أو سبق أن وصف قوم من الأقوام السالفة

(١) روح المعاني ، أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي ، ت ١٢٧٠ هـ ، المكتبة التوفيقية ، مصر ، القاهرة ، د.ت : ٥/ ٢٠٨.

(٢) التعبير القرآني ، د. فاضل صالح السامرائي : ١٠٧.

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي :٥٥٤ ..

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٣٦٨.

المذكورة في سورة الأعراف به ، هذا المستوى الجديد يضاف إلى مستويات الحوار بين الرسل وأقوامهم . ثم تطور هذا الأسلوب في الاستهزاء ليأخذ بعداً حوارياً جديداً ينتقل إلى الحوار بين القوم أنفسهم وهذا ما سيأتي الحديث عنه لاحقاً ، كما يتكرر هذا الوصف الاستعلائي لقوم شعيب إذ يقول تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)(الآية:٨٨) على طريقة ما ورد في قصة ثمود قوم صالح. وأخيراً فلا بدّ من الإشارة إلى ظاهرة تلاشي وصف العنصر الثاني للحوار في قصة قوم لوط عليه السلام ؛ مما يُؤكد كونه المستوى الخاص من مستويات الحوار.

خامساً : استجابة الأقوام لرُسُلهم (مستويات الرد) :

توحدت ردود أفعال الأقوام على ما جاءت به الرسل على الانكار والتكذيب مع تباين أساليبها في الرد ؛ ويبدو أنه كان وفق تنوع الثقافات على نحو ما عرضه الأسلوب القرآني ، وقد تنوعت تلك الأساليب وتوزعت على مستويات عديدة ، واتضح ذلك من خلال الحوارات المتبادلة بينهم . فقد كان ردّ الملأ من قوم نوح على ما جاء به من دعوتهم إلى توحيد الله تعالى أن قالوا له: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الآية:٦٠) ففي قولهم (إنا لنراك) والرؤية هنا ظنية عندهم فكان الاعتراض لا يتصف بالعلمية وإنما اعتمد الآراء الظنية ، ويُمكن اعتبار ذلك من أيسر أنواع التقييم . ولقد تكرر هذا الأسلوب في تقييم الدعوات ودحض الحجج عند قوم هود إذ تمثل ذلك بقوله تعالى: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (الآية:٦٦) فجاءت الرؤية الظنية هنا مؤكدةً بقولهم: (وإنا لنظنُّك) فصار الخطاب التقييمي أكثر وضوحاً من سابقه الذي جاء على لسان قوم نوح مقتضياً توكيدات أكثر ، كما تميز باستخدام ألفاظ استفزازية تميزت عما جاء على لسان قوم نوح ، فقالوا: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ) ، قال ابن قتيبة: السفاهة؛ الجهل ، وقال الزجاج: السفاهة؛ خفة الحلم والرأي ، وفي قولهم: (وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فكفروا به ظانين لا مستيقنين[1] ، وقال ابن عاشور: " وأطلقوا الظن على اليقين في قولهم : وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ

(١) زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، ٢٠٠١م – ١٤٢٢هـ ، بيروت ، لبنان: ١٣٣/٢.

الْكَاذِبِينَ" [١] ، "وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها" [٢].

أما ردّ الفعل الناتج عن قوم صالح فقد كان – كما ذكرنا فيما سبق– استهزاءً واضحاً نتج عن استكبارهم بدليل قوله تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)(الآية:٧٥)، ثم ينحو هذا الأسلوب في الاستهزاء نحواً آخر ليأخذ بعداً حوارياً جديداً ينتقل إلى الحوار بين القوم أنفسهم ، إذ يسلك الملأ المستهزئون مسلك الإمعان في الاستهزاء والسخرية ، ثم يتقصد الملأ الذين استكبروا توجيه الخطاب إلى فئة مختارة بهدف إقحامها حلبة الحوار؛قال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ)(الآية:٧٥)، نحو فئة من المستضعفين من الذين آمنوا منهم إمعاناً في الإستهزاء بهم وبرسولهم ،واختيار المستضعفين هنا مقصود لتحقيق غاية مهمة مفادها عدم التكافؤ في الحوار بين الطرفين ، ضماناً لفكرة نصرة المستكبرين وتغليب رأيهم ، فيكون بذلك قد دخل الاستهزاء والاستعلاء مرحلة الدعوة العملية في الانكار والاستكبار؛ إذ تحرك المستهزئون إلى إقامة حوار مع العامة لغرض إعمام حالة التكذيب في المجتمع ، بل إقحام المجتمع كله في تأييد فكرة أرادها السادة والرؤساء ، ولكن على الرغم من ضعف الفئة المقصودة في الحوار، فإنها تميزت بإيجابية كبيرة لم يكن متوقعاً من المستكبرون المستهزئون ، فما كان جواب الفئة المستضعفة إلا أن (قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)(الآية:٧٥) ، إنه ارتقاء في أداء اولئك المستضعفين تميز بالهدوء والصدق والدقة ، هذا الرد دفع المستكبرين إلى الإيغال في التعنت والإصرار على موقف الكفر ورفع الحوار إلى مستوى التحدي ، فقال تعالى على لسانهم: (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)(الآية:٧٦) ، ثم تلت تلك الأقوال أفعالُ المعصية التي نُهوا عنها.

أما قصة قوم لوط فقد جاء التعبير مختصراً سريعاً فقال تعالى: (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)(الآية:٨٢) ، وهذا أسلوب استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي ما كان جوابهم شيئاً من الأشياء إلا قولهم

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٨/ ٢٠٢.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٣٦٨.

بعضهم لبعض (أخرجوهم من قريتكم) .. هُنا أيضاً نَحَا التعبير القرآني منحى جديداً في إظهار قيمة الحوار بين القوم أنفسهم غير أنه حوار بين فئتين أو فئات من المنكرين المكذبين ليصدر عن ذلك الحوار اتفاق على إخراج الرسول من القرية .. "والقصد منه في الجواب على أبلغ وجه لأن ما ذُكر من حيز الاستثناء لا تَعلُّق له بكلامه عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها ووسمهم بما هو أصل الشرِّ كلِّه، ولو قيل: وقالوا أخرجوهم لم يكن بهذه المثابة من الإفادة"(١). فلقد كان حوار قوم لوط على نحو ما عرضه القرآن الكريم ضعيفاً فقير المفردات جانحاً عن المواجهة في الحوار إلى الطرد والاستبعاد لنبيهم ولمن تبعه من قومهم، فتغلب عندهم منطق القوة على منطق الحوار فكان ردهم عملياً في تحريض بعضهم بعضاً على إخراج الرسول وأتباعه من قريتهم.

أما لموقف قوم شعيب فقد اتجه الحوار عندهم إلى تصعيد من نوع جديد مختلف عن سابقه، فقد عرض القوم على رسولهم أن يختار بين أحد أمرين: إما أن يُخرَجَ مُكرهاً من القرية وإما أن يعود إلى ملة الكفر، وهو أسلوب يتضمن تخييراً بين أن ينصاع إلى رأي القوم أو أن يُخرج من أرضهم ، والأمر في الحالتين يعكس التعنت والتصلب .. تطور بالموقف يتضمن تهديداً مباشراً من دون اللجوء إلى أساليب الحوار المختلفة ، وهو أسلوب حديّ لا يقبل الرأي الآخر إلا إن كان موافقاً لرأيهم، ويتضح ذلك من قوله تعالى: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)(الآية:٨٨)، "فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيباً بالاخراج أو الاكراه على اتباع دينهم ... وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متبعة" (٢) ، وخطابهم إياه بالنداء جارٍ على طريقة خطاب الغضب ، كما حكى الله قول آزر خطاباً لإبراهيم عليه السلام : (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ) (٣) ، "وقد جعلوا عود شعيب والذين معه إلى ملة القوم مقسماً عليه فقالوا (أو لتعودنَّ) ولم يقولوا:

---

(١) روح المعاني : ٢٢٨/٤ .
(٢) تفسير التحرير والتنوير : ٥/٩ .
(٣) سورة مريم : ٤٦ .

لنخرجنكم من أرضنا أو تعودنّ في ملتنا ، لأنهم أرادوا الأمرين في حيز القسم، لأنهم فاعلون أحد الأمرين لا محالة وأنهم ملحّون إلى ملتهم"(١).

سادساً : تصحيح المفاهيم :

لمّا جاءت مستويات رد الأقوام جميعاً سلبية مع تنوع مستويات الحوار وتغيره ؛ كان لابد من تصحيح تلك المفاهيم التي علقت في أذهان تلك الأقوام، هذه المهمة الصعبة مارسها الرسل عليهم السلام جادّين كلَّ الجدِّ في محاولة أولئك تغيير تلك المفاهيم الخاطئة العالقة في أذهان القوم.

فنبتديء بالمستوى الأول المتمثل بقوم نوح عليه السلام ، إذ كان تقييمهم لرسولهم يظهر جلياً من قولهم: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي الضلال الكبير أو الذهاب عن طريق الحق(٢) ، فكان جواب سيدنا نوح مباشراً: (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ) ؛ وفي الآية عدول عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة) ، "واختار حرف الجر الباء لنفي أدنى ملابسة له بالضلالة"(٣) ؛ أي ليس فيَّ أقل القليل من الضلال فضلاً عن الضلال الكبيرأو المبين، و"الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال" (٤) ، فالتفت عن صيغة المصدر –التي يتحقق منها معنى الكثرة– إلى صيغة اسم المرة ، "وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد اتهموا نوحاً عليه السلام بالضلال اتهاماً مؤكداً بإن واللام مبالغاً فيه بادعاء رؤيتهم له في ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (في) من معنى الاحاطة والانغماس في الضلال ، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بيِّن واضح ثابت ، فناسب ذلك أن يسلك نوح في نفي هذا الاتهام مسلكاً آكد وأبلغ من إثباته فلهذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعتها نكرة في

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٦/٩ .
(٢) روح المعاني : ٢٠١/٥ .
(٣) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د.عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة العصرية ، ٢٠٠٨ ، بيروت (لبنان) : ١٦٩ .
(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٣٦٧.

سياق النفي لإفادة العموم"[1] ، وفي ندائه (ياقوم) –للمرة الثانية– بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق، وهو أسلوب سار عليه كافة الرسل في خطاب أقوامهم، فيشعرهم عبر هذه الكلمة بأنهم قومه فهو منهم والأصل أن الشخص يريد الخير لقومه[2]. وفي قول نوح عليه السلام: (وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الآية:٦١) استدراك على ماقبله وذلك أن القوم لمّا أثبتوا له الضلال أرادوا به دعوى الرسالة وترك دين الآباء ، فحين نفى الضلالة تُوهِم منه أنه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة فوقع الإخبار أنه رسول الله الواحد وثابت على الصراط المستقيم استدراكاً لذلك[3]. ثم يستطرد الرسول وينتهز الفرصة في إدماج المقصود بجواب على أتم وجه فيقول: (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (الآية:٦٢) ، فيُظهر شفقته عليهم ونصحه لهم، "يقال: نصحته، ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة ، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصود بها جانبه لا غير" [4]، وهنا إذ نلمح فجوة في فهم القوم للرسالة التي جاء بها رسولهم ؛ فكأنما قد عجِبَ القوم أن يختار الله رسولاً من جنس البشر من بينهم ، يحمِّله رسالة إلى قومه، وأن يجد هذا الرسول في نفسه علماً من ربه لا يجده الآخرون، هذه الفجوة في فهم القوم لرسالة الرسول دلَّل عليها السياق القرآني في قوله تعالى: (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) ، وما من عجب في هذا الاختيار فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة التي جاءهم بها فيقول: (لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الآية:٦٣) فهو الانذار بتحريك القلوب بمشاعر التقوى، ليظفروا في النهاية برحمة الله[5] ، فكان نوح قد اختتم كلامه على طريقة الترغيب رجاء أن يتعظوا ويتقوا. من هنا فقد وردت عبارة (التقوى) في آخر خطاب الرسول نوح عليه السلام وهو المستوى الحواري الأول، فيكون من المناسب أن يبتديء المستوى الثاني من الحوار

---

(١) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : ١٦٨– ١٦٩ .

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة : ١/ ١٣٣.

(٣) روح المعاني : ٢٠١/٥ .

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :٣٦٧.

(٥) في ظلال القرآن : ٣ / ١٣٠٩.

بالكلمة نفسها لينطلق إلى مستواه الجديد المتميز من سابقه ببعض الخصال التعبيرية الجديدة وهو ما ورد من خطاب رسول الله هود (أَفَلا تَتَّقُونَ) (الآية:٦٥)، لأن هؤلاء قد علموا بما حلّ بغيرهم من نظرائهم من قوم نوح عليه السلام، ومع هذا فقد كان جواب قومه: (إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (الآية:٦٦) ، فقال لهم هود عليه السلام على طريقة الحوار نفسه؛ تلك التي سلكها نوح عليه السلام من قبله: (قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الآية:٦٧) ؛ "لقد نفى عن نفسه السفاهة في يُسْرٍ وصدق كما نفى نوح عليه السلام عن نفسه الضلالة وقد كشف لهم كما كشف نوح عليه السلام من قبل عن مصدر رسالته وهدفها [١] ؛ مستميلاً لهم متمّاً ما لديه من أقوال ونصائح (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي) وهي أيضاً على طريقة نوح عليه السلام.

فَلِمَ كان في جوابهم لنوح عليه السلام لفظ (ظلال) وفي جوابهم لهود عليه السلام لفظ (سفاهة) ؟

الضلال من ضلّ وهو العدول عن الطريق المستقيم ، والضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أم سهواً ، يسيراً كان أم كثيراً [٢] ، أما السفه ؛ فهو خفة في البدن ، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل ، وفي الأمور الدنيوية والأخروية [٣] . والضلال قد يكون مؤقتاً بعدول صاحبه إلى الصراط المستقيم ، أما السفه فهو حالة يصعب العدول عنها ، وتعكس جانباً من شخصية الانسان وكوامن نفسه ، لذلك فقد كان الاتهام بالسفه أعلى مستوى وأكبر درجة من الاتهام بالضلال.

ويمكن أن نستنتج من ذلك [٤]:

أولاً : اختلاف الاتهامات من الملأ ورد الرسول واحد (رسول من رب العالمين) .

---

(١) م ٠ ن ٠ : ٣ / ١٣٠٩.

(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني ، تحقيق: صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ، دمشق ، ط٢ ، (د.ت) : ٣٤٣ .

(٣) ينظر :المفردات : ٥٥٧ .

(٤) المبنى والمعنى في الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، د. عبد المجيد ياسين المجيد ، دار ابن حزم ، ط١ ، ٢٠٠٥ – ١٤٢٦هـ ، بيروت ، لبنان : ٢٦٣ .

ثانياً : أسلوب الاستفزاز والإيذاء ورد الرسول الهاديء المتزن ، النافي بلطف ، المحاور بأدب الداعية الرحيم : (ليس بي ضلالة) ، (ليس بي سفاهة) .

ثالثاً : اختيارهم –أي الأنبياء– الألفاظ بدقة وقياسها على قدر الاتهام ليكون التناسق والانسجام تامّاً بين المبنى والمعنى في الآيات .

رابعاً : ما ذكره الزمخشري في تفسيره : " في إجابة الانبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قال لهم من علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم " (١)

ثم يتفرد هود عليه السلام بأسلوب خطابي جديد مُضافٍ إلى ما ورد في خطاب نوح عليه السلام ومتميزٍ عليه بطريقة جديدة في المناقشة والإقناع فيقول: (وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)(الآية:٦٨) ، وهي مختلفة عن قول نوح عليه السلام: (وَأَنْصَحُ لَكُمْ) فالبرغم من كون هذه عبارة تفتتح بالفعل وهو أسلوب التغير والتجدد ؛ فهي مناسبة تماماً لدعوة سيدنا نوح عليه السلام التي استمرت تسعمئة وخمسين عاماً ؛ قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (العنكبوت١٤)، وهي أطول دعوة عرفتها البشرية مارسها نبي ليلاً ونهاراً سراً وعلناً ؛ وهي ما أُشير إليها في سورة نوح في قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً) (نوح:٥) ، وقوله تعالى: (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ¤ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً) (نوح٨–٩) ؛ فما أجدر أن يُعبّر عنها بأسلوب يفيد التغير والتجدد . بينما عبارة هود ؛ عبارة اسمية ، والاسمية أكثر ثباتاً من الفعلية ، فضلاً عن استعمال لفظ (أمين) أي: أمين في تبليغ الرسالة ، إذ كنت فيكم أميناً قبل اليوم(٢) ، وفيها تنبيه على الخصيصة التي يتصف بها رسل الله جميعاً ، ولِرَدِّ قولهم له: (وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (الآية:٦٦)(٣) ،

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : ٣٦٨.

(٢) زاد المسير: ٢ /١٣٣.

(٣) م.ن. : ٢ /١٣٣ .

وتقديم (لكم) على عامله (ناصح أمين) والأصل فيها (ناصح أمين لكم) للإيذان بالاهتمام بما ينفعهم[١] ، ثم يعود سياق الحوار إلى تلكم الطريقة التي سلكها نوح عليه السلام لتقترب فكرة الموضوع من الأذهان ويشدهم رسولهم إلى التأمل وإنصاف الفكرة ، فيقول: (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) ، ثم يضاف إلى عناصر تقويم الحوار ما ورد من تذكير وإرجاع للأذهان إلى مصير من سبقهم من الأمم السالفة لمّا أعرضوا عن رسولهم وما أصابهم من الإبادة والدمار ، وتذكيرهم أيضاً بفضل الله عليهم ومنته أن جعلهم خلفاء لمن سبقهم من الأمم الغابرة ؛ والحوار يتصف هنا بضرب الأمثال والتذكير ورصد حالات مشابهة لواقع القوم ليسلك الحوار مسلكاً يحيل عقول القوم إلى الإستقراء التاريخي قال تعالى: (وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ) ، ثمّ يذكرهم بنعمة أخرى أنعمها الله تعالى عليهم ؛ ألا وهي نعمة التميز في الخلقة وما منحهم الله تعالى من البسطة في الجسم وضخامة الأبدان والقوة فقال تعالى: (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الآية:٦٩) .

ولقد تجسد أسلوب التطويل في هذا الجانب من الحوار في قصة قوم شعيب عليه السلام، فيتضح ذلك من خلال السرد الذي جاء في قوله تعالى: (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا)(الآية:٨٨) ، بيد أن الرسول عليه السلام كان أكثر مرونة وعقلانية في معالجة التصعيد الذي تبناه الطرف الآخر منطلقاً من قاعدة نبوية عظيمة مفادها قوله تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [٢] ؛ موضحاً لهم بأنه: ليس من الانصاف أن تكرهونا على عبادة ما تعبدون، فنحن لم نكرهكم على شيء فينبغي أن يكون الردّ المنصف مقابل ذلك ألا تكرهونا على شيء فقال: (أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ)، والاستفهام مستعمل في التعجب ؛ وهو

(١) التحرير والتنوير : ٨/ ٢٠٣ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

تمهيد لبيان تصميم النبي ومن معه على الإيمان ، وفي ذلك تعريض بحماقة خصومه إذ يحاولون حمله على ملتهم بالاكراه(١).

سابعاً : إعراض الأقوام عن رسلهم (نقض المعطيات) :

تنوعت أساليب النقض لدى الأقوام لِما جاءت به رسُلهم، فتوزعت على مستويات تصاعدية مبدوءة بأيسر أسلوب صادر عن قوم نوح عليه السلام؛ عبّر عنها القرآن بكلمة واحدة فقال تعالى: (فَكَذَّبُوهُ)؛ وهو رفض مُعبَّرٌ عنه بأوجز صورة ؛ لا يعتمد المحاججة وشرح الأسباب.

يأخذ هذا النقض مستوى جديداً مع قوم هود عليه السلام قال تعالى : (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (الآية:٧٠) ، فصار النقض على مرحلتين:

الأولى: تكذيب للرسول عبر استفهامٍ إنكاري (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) .

الثانية: تحدٍ قوليٍّ متمثل بطلب إنزال العذاب (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

أما قوم صالح فإن النقض يأخذ مستوى جديداً ثالثاً لديهم ، ويتمثل ذلك بمرحلتين أيضاً:

الأولى: تكذيب فعلي متمثل بما روته الآية القرآنية في قوله تعالى: (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ) ، وأُسنِد عقر الناقة إلى مجموع القبيلة لرضاهم جميعاً وتأييدهم لهذا العمل(٢).

والثانية: متمثلة بتحدٍّ قولِيٍّ تضمن تكذيب الله جلّ وعلا قال تعالى: (وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (الآية:٧٧) ، فقد ذكر عنهم أنهم(٣) :

---

(١) تفسير التحرير والتنوير : ٩/ ٧ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، ابي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د. ت : ٣٢/٢ .

(٣) التعبير القرآني: ٢١٠ .

١. أعلنوا كفرهم .

٢. عتوا عن أمر ربهم .

٣. أنهم تحدوه وقالوا: (ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

أما المستوى الخاص من النقض والتحدي فقد تمثل بقوم لوط عليه السلام وردهم على رسولهم في قوله تعالى: (أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)(الآية:٨٢)، إذ تضمن تعنُّتاً واعترافاً بأنهم يخرجون الذين يتصفون بالطهر من القوم، وهي حالة خاصة فعلاً تتميز عن المستويات الأخرى لدى سائر الأقوام، وهي تحمل بين طياتها الاعتراف بأنهم أناس سيئون يعملون الفواحش باصرار، وهم يخرجون من قريتهم كل من أراد التطهر أو الاتصاف به.

ثمّ يأتي بعدها المستوى الأخير في النقض المتمثل بما تبناه قوم شعيب في قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)(الآية:٩٠) وهذا كله متأتٍ بعد فقرات الحوار التفصيلية التي دارت بين عنصري الحوار الرئيسين.

ثامناً : النتيجة :

كانت النتيجة واحدة في كل الحالات المقدمة لتعنت الأقوام في رفض مفهوم الإله الواحد ونبذ ما كان يعبد الآباء من الآلهة التي لا تضر ولا تنفع ، في حين نجد اختلافاً في أسلوب العذاب الذي أصاب القوم المنكرين قال تعالى: (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [١] .

فقد تميزت الآية الكريمة بالتفصيل والايضاح بعد الاجمال "بيان تفصيلي يقع في سلسلة الأحداث والقصص التي ذكرتها السورة فهي بُنْيَةٌ كبرى فيها بُنْيَةٌ إجمالية صغرى تنبثق منها المعاني؛ تمثلت في قوله تعالى: (فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) وقد توضَّح مقصدها البيني من خلال اللاحق فهي تعبير عن نهاية القصص التي غالباً ما تكون مختومة بمصارع المكذبين" [٢].

---

(١) سورة العنكبوت:٤٠

(٢) الاطناب في القرآن الكريم أنماطه ودلالاته ، وفاء فيصل اسكندر محمد ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٤: ١٣٢.

وفي الآية الكريمة إيجاز حذف مفاده (فكلاً منهم أخذناه بذنبه) أي كلّ قوم منهم أخذناه بالذنب الذي اقترفه، وكان ذلك من عدل الله وحكمته في تحديد صنف العذاب اللائق بكل ذنب مقترف [1] ، فكان نصيب قوم نوح الإبادة بالإغراق؛ قال تعالى: (فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ)(الآية:٦٤). وقال تعالى في قوم هود: (وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ)(الآية:٧٢). وأما قوم صالح فقد أخذتهم الرجفة ؛ قال تعالى : (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (الآية:٧٨) . وقوم لوط كانت عقوبتهم خاصة تصورها الآيات الكريمة في القرآن الكريم بصور متعددة قال تعالى : (فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) [2] . ويقول تعالى: (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)[3]، وفي سورة الأعراف يقول تعالى: (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (الآية:٨٣-٨٤). وأخيراً قوم شعيب إذ يقول تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)(الآية:٩١-٩٢).

تاسعاً : العبرة :

استمر الحوار لدى بعض الرسل حتى بعد أن قضى الله أمره وأهلك القوم فهذا رسول الله صالح يقول مخاطباً قومه بعد أن أصابهم ما أصابهم من العذاب : (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ) (الآية:٧٩) وفي ذلك تجسيد للعبرة المستفادة ، وإظهار لحالة من الأسى والحزن على القوم ، ويأتي التعبير القرآني لإبراز العبرة من عذاب قوم لوط دون الأسى عليهم فقال تعالى : (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) (الآية:٨٤) ، وأخيراً يظهر التعبير القرآني

(١) آيات الأنواء الجوية في القرآن الكريم – دراسة بلاغية ، أحمد عامر الدليمي، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٥ : ٥٥.

(٢) سورة هود : ٨٢ .

(٣) سورة الحجر: ٧٤ .

حواراً لنبي الله شعيب وهو يخاطب قومه بعد أن أصابهم الله بعذاب مماثل لعذاب قوم صالح فخاطبهم بخطاب مماثلٍ أيضاً لخطاب صالح لقومه غير أنه لا يظهر الأسى عليهم ، وقد يكون ذلك لعدم اعتبارهم ممن سبقهم من الأمم الغابرة وهي عديدة ، فقال تعالى: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ) (الأعراف:٩٣) .

والسؤال يطرح نفسه : لماذا تضمن قول صالح عليه السلام لفظ (رسالة) وتضمن قول شعيب عليه السلام لفظ (رسالات) ، ويعود ذلك إلى ما ذكره صاحب الدرة [(١)]:

الأول : أن تحذير صالح عليه السلام بعد أن أمرهم باتقاء الله وطاعته ، هو أمر الناقة، والمنع من التعرض لها ، فجعل الرسالة جملة ولم يفصل فأفرد (رسالة) .

الثاني : أما شعيب عليه السلام فنهاهم عن عبادة الأوثان وأمرهم بتقوى الله وطاعته، فالأمور التي أمر بها شعيب قومه كثيرة فجمع (رسالات) .

خاتمـــة :

تناول البحث صورة بارزة من صور الحوار في القرآن الكريم تمثلت في الحوار بين الرسل وأقوامهم في سورة الأعراف ، إذ تضمنت الدراسة مقارنات في الحوار بين قصص الأقوام الخمسة متمثلة بـ (قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب)، وتضمن منهج البحث في هذا القسم تصنيف الحوار بين الرسل وأقوامهم إلى موضوعات عديدة ، ضمن مستويات خمسة ، تم تحديد ذلك ضمن دراسة تحليلية . ولقد أظهر البحث من خلال المقارنات اختلافات تعبيرية واضحة بين مستويات الحوار المختلفة. فقد توزعت المقارنات بين الرسل وأقوامهم على جوانب عديدة: كتحديد شخصيات الحوار ، وأولويات الحوار ، والأساليب المتنوعة في العرض ، والأساليب المتنوعة أيضاً في الرد ، وأساليب تصحيح المفهوم التي تبناها الرسل عليهم السلام ، وغير ذلك ، بالرغم من أن الرسالة التي جاء بها الرسل جميعاً كانت موحَّدة : وهي رسالة التوحيد ، وعبادة الله وحده لا شريك له ،

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت (لبنان) ، ط١ ، ١٩٧٣ .

ولقد مثلت وحدة الموضوع (رسالة التوحيد) في القصص الخمسة مقياساً جيداً لمعرفة الفروق التعبيرية في الحوار بين الرسل وأقوامهم وفق أصل من أصول البحث العلمي ، وعلى هذا المرتكز عمدنا إلى المقارنة بين قصص الأقوام الخمسة للكشف عن الفروق التعبيرية في عرض الرسل لرسالتهم ، والأساليب المتنوعة أيضاً في الرد ، وأساليب تصحيح المفهوم التي تبناها الرسل عليهم السلام ، وغير ذلك .

Expressive Differences in the Dialogue between Prophets and their Communities in Gracious Quran

Lect. Dr.Ahmed A'amir Al-Dulaimi

Abstract

Expressive Differences have computed in Quranic figures (Ayyat) that reflect the reality of both speaker and listener , their presentations and development as well as the general atmosphere of the Quranic story with its elements , purposes beside the role in discovering and translating these differences .